الفصل الثالث

كريت تحت حكم البنادقة (١٢٠٤ — ١٦٦٩)

هيأت الظروف للبندقية فى بداية القرن الثالث عشر حظاً من النجاح السياسى لم تكن لتحلم به من قبل فاحتلت فى الشرق مكاناً سياسياً واقتصادياً حسدتها عليه كافة الشعوب الإسلامية والمسيحية على السواء .

فهى قد بصرت بأمبراطورية البيزنطيين فرأتها تتدهور وتهوى بسرعة ، فمدت أطماعها إليها وانتهزت قيام الحرب الصليبية فأسهمت فيها أملاً فى توسيع أملاكها على حسابها ، و بغية تقوية مركزها التجارى فى الشرق(١) وحققت الظروف آمال البنادقة باتفاق أكتوبر ١٢٠٤ الذى جعل من نصيبهم خير ما كان تحت سلطان البيزنطيين من ملك(٢) .

وارتبط مصير جزيرة كريت فى ذلك الوقت أى فى بداية القرن الثالث عشر بحروب الصليب وبخاصة تلك التى وجهها الصليبيون — وضمت يومئذ أخلاط من البنادقة والفرنسيين والايطاليين والألمان — ضد بيزنطة . وكان من نتائجها سقوط عاصمتها القسطنطينية فى أيديهم ، فلما أرادوا اقتسام أملاكها بينهم ، كان نصيب بونيفاس منفرات(٣) إقطاعيات فى بعض الأقاليم الأسيوية إثر استبدال

---

(١) Finlay, Vol. IV, pp. 271-272.

(٢) أنظر مدى اتساع هذه الأملاك وتوزيعها فى شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ، تعريب الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق اسكندر ، ص ٤٣ — ٤٤ .

(٣) Montferrat أرض فى إيطاليا تقع جنوبى نهر البو . وشرقى تورينو ، تملكها أسرة كانت من أكبر الأسرات فى لمبارديا فى القرن الثانى عشر ، واشترك أفراد منها فى الحروب الصليبية وكان « بونيفاس » Boniface قائد الحملة الصليبية الرابعة فى سنة ١٢٠١ وهى الحملة التى تحولت إلى القسطنطينية ثم أعطى حكم مقدونية وشمال تساليا وكريد ، وفى سنة ١٢٠٧ قتل بينما كان يحارب البلغاريين ، شارل ديل ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

غيرها بها نظراً لبعدها عن أملاكه الموروثة فى إيطاليا ، فاستبدل بها مقدونية وقبل أن يتقرر نصيبه من أملاك الأمبراطورية البيزنطية التى سقطت كلها فى يد الغزاة ، أجرى مع البندقة مفاوضات انتهت بتنازله لهم عن جزيرة كريت التى ادعى أن الكسيوس Alexius الرابع (الصغير) كان قد وعده بها ، وعن سالونيك التى ادعى أن الأمبراطور مانويل كان قد وعد بها أباه ، كما تنازل لهم عن أملاك أخرى كان قد حصل عليها من الأمبراطورية لقاء تعويض قدره ألف مارك من الفضة بالإضافة إلى جزء من نصيبهم يقع فى الجزء الغربى من الأمبراطورية(١).

وهكذا أتاحت الظروف السياسية للبندقة إقامة أمبراطورية كبرى من الأمبراطوريات الاستعمارية فى الشرق . وظل دوج البندقية يتربع على عرشها مزهواً بكونه صاحب ربع ونصف ربع الأمبراطورية البيزنطية حتى عام (١٣٤٦)(٢) .

وكانت كريت التى صارت فى حوزة البندقية نتيجة للحرب الصليبية الرابعة أغلى درة فى تاجها نظراً لموقعها الممتاز الذى جعل منها محطة صالحة لاستقبال سفن التجارة فى طريقها إلى مصر وفلسطين وقبرص وآسية الصغرى والقسطنطينية وشواطىء البحر الأسود حتى طرابيزون(٣) وفيها وجد البندقة خير قاعدة يمدون منها سلطانهم على الشرق ، وليس غريباً أن يصفها أحد دوجاتهم بأنها « عماد الأمبراطورية ، ومركز قوتها فإن نزلت بها نازلة فقدنا الأمل فى كل ماعداها » وليس أدل على مكان الجزيرة من امبراطورية البندقة وحرصهم عليها من أنها كانت آخر ما تبقى لهم من أملاكهم فى الشرق(٤) . وتعرضت الجزيرة إبان استيلاء البندقة عليها لهجوم المغامرين من رجال الحرب ، فقصد إليها أحدهم ويدعى « هنريكو

---

(١) Finlay, Vol. IV, pp. 97-98.

(٢) شارل ديل ، ص ٤٤ .

(٣) Finlay, Vol. IV, p. 272.

(٤) أنظر شارل ديل ص ٤٦ — ٤٧ .

بسكاتورى « Enrico Pescatore (هنرى حاكم مالطة) غازياً عام ١٢٠٦ ونجح فى الاستيلاء على جزء كبير منها . وحاول بمعاونة جمهورية جنوه أن يستقل بها ويجعل نفسه أميراً عليها ، ولكن البنادقة نجحوا فى طرد هذا المغامر وأعوانه من الجزيرة بعد أن استقر فى الجزيرة ستة أعوام كاملة(١) .

واستفاد البنادقة من هذه التجربة التى مرت بهم فى بداية عهدهم بحكم كريت ، إذ أثبت لهم قدرة الكريتيين على تحمل الشدائد وإقدامهم على الحرب ونزعتهم الحادة إلى الاستقلال وثباتهم فى الدفاع عن ديارهم ، كما وضحت طمع أهل جنوة فى السيطرة على الجزيرة ، وهنالك صمموا على ضرورة العمل على تنظيم شئون الجزيرة وتأمين حياتهم ومصالحهم فيها . كان ذلك عام ١٢١٢ ، وهو العام الذى خلصوا فيه الجزيرة من ذلك المغامر الذى مر ذكره ، واستطاعوا بالتالى أن يهادنوا أهل جنوة ليتمكنوا من اتخاذ إجراءاتهم نحو تنظيم استعمارهم للجزيرة . فأقطعوا فيها الجند من فرسان ومشاه ، كما أقطعوا النبلاء من المستعمرين البنادقة . ولم يكن المقطعون سواء فيما نالهم من أرزاق . وكان على صاحب النصيب الأكبر أن يزود الحكومة فى زمن الحرب بفارس وتابعين ، مزودين جميعاً بالخيل والسلاح ، وعلى صاحب النصيب الأصغر أن يقدم عشرة من المشاه . ثم قسمت الجزيرة إلى ستة أقسام إدارية ليتمكنوا من إدارتها على نحو ما تجرى الأمور فى البندقية . وعلى رأس الحكومة نائب للدوج بلقب دوج ، جعلوا مقره قندية ، يعاونه مستشاران ومجلسان أحدهما كبير والثانى صغير(٢) .

وبفضل تلك الطوائف من رجال الحرب الذين أنزلهم البنادقة فى مختلف أنحاء الجزيرة ، وأقطعوهم من أرزاقها ما يضمن لهم حياة مستقرة ، استطاعوا أن يثبتوا فيها أقدامهم ، ويمكنوا فيها لسلطانهم من ١٢٠٤ إلى أن استولى عليها الأتراك

---

(١) Finlay, Vol. IV. p. 272.

(٢) أنظر شارل ديل ، ص ٤٦ ، و *Cambridge Medieval History*, Vol. IV, p. 434.

العثمانيون فى ١٦٦٩ ، خمسة قرون إلا نصف قرن . واجهوا الثورة خلال قرنين منها خمسةعشرة مرة ، يقوم بها الكريتيون وهم من اليونانيين الأرثوذكس اللذين يكرهون الشعوب اللاتينية ويمقتون مذهبهم الكاثوليكى أشد المقت(١) وفى إحداها تمكن الكريتيون من الاستيلاء على قلعتى « ميرابللا » Mirabella « وسيتيا » Setia فاستنجد حاكم الجزيرة « تيبولو » Tiepolo بمواطنه « ماركو سانودو » Marco Sanudo الحاكم على جزائر الأرخبيل من قبل البندقيـة فبادر إلى نجدته على رأس قوة مكنت البنادقة من قمع الثورة . وهنالك طمع حاكم الأرخبيل فى أن يجعل الجزيرة خالصة له ، وفر تيبولو فالتجأ إلى قلعة «تمنوس» Temenos وأخذ يستعد للقضاء على مواطنه الذى غدر به فى ساعة الشدة ، وكان هذا قد أخذ يغزو سائر أنحاء الجزيرة. فلما وصلت النجدة من البندقية تحت امرة « كيرينى » Quirini استطاع « تيبولو » أن يسترد قندية وأن يزج برجال سانودو وبالثائرين من أهل الجزيرة فى السجون ، ولم تخلص الجزيرة من آثار الثورة سريعاً وإنما اقتضاها ذلك وقتاً طويلاً ، ذلك لأن الثوار كانوا ما يزالون يسيطرون على سهل من أخصب بقاع كريت يمتـد بين « ميلو بوطامو » Mylopotamé ورأس « سبادا » Spada ولم يرى حاكم الجزيرة يومئـذ أن يأخذ ذلك السهل عنوة خشية ما قد يترتب على ذلك من تخريب وتدمير ، وتجنباً للقضاء على سكانه ، فبادر بالعفو عن « ماركو سانودو » وعاهده على تأمين سلامته وسلامة حلفائه إن هم غادروا الجزيرة ، كما منحهم مبلغاً من المال لقاء تنازلهم عما كان فى أيديهم من قلاع الجزيرة ثم أكدت البندقيـة هذا العفو نظراً لحاجتها إلى تأييـد « سانودو » فى جعل أملاكه ضمن منطقة الاحتكار التجارى التى كانت تتطلع إليها وتطمع فى تحقيقها بعد إخراج الجنو بين والبيزنطيين منها (٢) .

---

(١) A. Softazadé, *La Crète sous la domination et Suzeraineté Ottomanes*, pp. 2-3.

(٢) Finlay, Vol. IV, pp. 279-280.

وفى عام ١٢٧٤ واجه البنادقة ثورة قتل فيها حاكم الجزيرة مع نخبة من نبلاء البندقية ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام تمكن الثوار من محاصرة العاصمة وظلت الفتن تعكر صفو السلام فى الجزيرة ستة عشر عاماً (من ١٢٨٣ — ١٢٩٩) — ولما كان عام ١٣٤١ تقلص حكم البنادقة فلم يعد قندية وبعض قلاع أخرى . فإذا ما حل عام ١٣٦٣ واجه البنادقة ثورة عرفها تاريخهم فى كريت ، فقد ثارت جاليات البنادقة معلنين سخطهم مما فرض عليهم من الضرائب الباهظة وهددوا حاكم الجزيرة ، وأسقطوا علم القديس مرقص المرفوع على دار الحكومة ، وأقاموا حكومة جديدة ، وأهانوا مبعوثى السناتو الذين جاءوا لإصلاح الحال وإعادة النظام وبدت الجزيرة وكأنها انسلخت من كيان الأمبراطورية . ولكن سرعان ما وقع الانقسام بين صفوف الثوار فأتيحت الفرصة لأسطول البندقية أن يسترد قندية ويخمد نار الثورة . وكان من جراء هذه المغامرة أن قضى على النظام الإقطاعى فى الجزيرة ، وانحلت جمعياتها ، وفقد السكان حقهم فى انتخاب رؤسائهم . واستتب الأمر للبنادقة ، ومكنوا لسلطانهم فى الجزيرة أكثر من أى وقت مضى(١) .

الاستعمار البندقى :

هدأت الحياة فى الجزيرة بعد إخماد تلك الثورة التى قامت بها جاليات البنادقة وظل الهدوء يسود أنحاء الجزيرة حتى مطلع القرن السادس عشر حين أجمع الكريتيون من سكان « سلينو » Selino « واسفاكية » Sfakia « وريزو » Rhizo وبعض القرى فى سهل خانيه على عصيان أوامر المستعمرين يقودهم فى ذلك زعيم لهم يدعى « جورج جاد انول » George Gadhanole وكان مديراً لتلك الأقاليم ، وكان من سلطته تعيين بعض من يعاونه على إدارة

---

(١) شارل ديل ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

شئونها ، فكان يختارهم من صفوة الثقاة من أنصاره . وكان من جراء ذلك وجود سلطتين مختلفتين تتضارب أعمالها ولا تكاد تستقيم ، ويضيق البنادقة بما كان للمواطنين من سلطان وبخاصة جباية الضرائب . ويفكر زعيم الوطنيين فى إصلاح ذات البين ، ويخطو فى سبيل ذلك خطوة فيقصد إلى أحد نبلاء البنادقة ويدعى « فرنشيسكو موليني » Francesco Molini فيخطب وده ويطلب يد ابنته ليزوجها من ابنه الفارس الشجاع ، ويرضى النبيل بذلك وتقام الأفراح بعقد القران بالزعيم الوطنى وأولاده وكافة ضيفانه فيأمر بشنقهم جميعاً فى أنحاء متفرقة من الجزيرة ثم قبض على إثنى عشر مطراناً من الوطنيين فيفعل بهم مثل ذلك ، وهكذا تتم تلك الجريمة من جرائم الاستعمار ، ممثلة أبشع ألوان الغدر والخيانة ، وليت الأمر يقف بذلك الجزار القادر عند هذا الحد ، فهو لا يكاد ينتهى من فعلته النكراء حتى يتبعها بأخرى أكثر بشاعة وأشد نكراً ، أنه يقبض على أربع حوامل من زوجات مشاهير الأعيان الوطنيين ثم يأمر بشق بطونهن ، بما فيها من أجنة ليقتلها ولما تتم آجالها فى الأرحام . ويرى بذلك أنه قضى على الثورة فى النفوس بما أثار فيها من فزع ولما انتهت تلك المأساة الدامية طلب المستعمرون من الوطنيين فى « كاستيل فرانكو » Kastel Franco « وأبو كرونا» Apokorona و« إسفا كية» «وسلينو » Selino «وكيسامو » Kisamos أن يأتوا مهطعين مقنعى رءوسهم تائبين ليقدموا فرائض الطاعة والخضوع . فيقتل منهم المستضعفون ، ويأبى ذلك الحريصون من أهل الأسر الكبيرة وسكان المناطق الجبلية فتصادر أملاكهم ، وتستباح دماؤهم ويعلن على الملأ ألا أمل لأحدهم فى الحياة ، ولا مفر له من الموت إلا أن يجىء كل من المستعمرين ويبيده رأس ولده أو أخيه أو أحد من أبناء عمومته ويظل سيف المنايا مشرعاً بيد هذا الطاغية من رجال الاستعمار حتى يأتيه أسقف من أسرة « بتيرى زابا » Pateri Zapa ومعه إثنان من ولده ومثلهما من إخوته يحمل كل منهم رأس واحد من ذوى القربى فيرفعونها إليه دامية وسط غمرة من الدم

والهم والذل والدموع ، هنالك يتفضل طاغية القوم فيعلن أنه اكتفى بذلك جاعلاً من هذا الفصل خاتمة المأساة التى لعب فيها دور البطل الذى حرمته الطبيعة من نور العقل ، وقضت على ضميره بالموت(١) .

إنهيار حكم البنادقة فى كريت :

بدأ سلطان البنادقة يحتضر ، ورأى شبح الموت يواجهه عندما زال ظله عن قبرص عام ١٥٧١ وكان البنادقة منذ استيلائهم عليها فى ١٤٨٩ يرونها درعاً يحمى لهم كريت من كل عدوان يحتمل أن يصيبها من أمام . وهنالك بات البنادقة يشعرون بضعف مركزهم فى الجزيرة . وبادرت حكومة البندقيـة بإرسال بعثتها السياسية برئاسة « فوسكارينى » Foscarini للنظر فى أحوال الجزيرة ، ومحاولة إصلاح أمورها بعد الذى اعتورها من فساد وسوء نظام(٢) . اهتمت البعثة بالنظر فى مظالم الأهالى ، وحاولت رفع الحيف عنهم ، ورد الطمأنينة إلى قلوبهم بعـد الذى ثبت لها من سوء أحوالهم ، وشـدة نفورهم من البنادقة ، وتطلعهم إلى العثمانيين استجارة بهم من الظلم وأملاً فى أن يجدوا فى ظلهم حياة أفضل . كذلك اهتمت البعثة باحياء النظام العسكرى بعد الذى أصابه من الوهن والاضمحلال(٣) .

على أن قضاء الأيام قد كان أقوى من جهود البعثة التى جاءت متأخرة ، فعلى الرغم من كل ما بذلتـه من جهود لإرضاء الفلاحين الذين رأوا فى مقدمها بصيصاً من نور الأمل ، فقد رأى فيها المستغلون غير ذلك ، وباتوا يضيقون بها ،

---

(١) أنظر تفاصيل المأساة كما وصفها الرحالة باشلى : Pashley, Vol. II, pp. 151-156.

(٢) كانت هذه البعثة فى نهاية القرن السادس عشر ، وكان ضمن أعضائها Gazoni أحد أعضاء مجلس السناتو لوضع تقرير عن أحوال الجزيرة ، أنظر : Pashley, Vol. II, p. 284.

(٣) كان من سياسة البنادقة أن يفرضوا سلطانهم الدينى على كل ما يحكمون من شعوب . وكان أكثر رجال الدين فى الجزيرة قد هربوا فوراً بدينهم ودنياهم من وجه البنادقة الذين شطوا ففرضوا طقوسهم الدينية اللاتينية على أهل كريت فأثاروهم حتى أدى الأمر إلى حدوث مذبحة كريت عام ١٣٦٤ *Cambridge Medieval History*, Vol. IV, pp. 606-616.

ويحاولون احباط تدبيرها . ولم ييئس الكريتيون بعامة مالقوا ولقى أسلافهم على على أيدى طغاة المستعمرين من ألوان الظلم والعسف ، وصنوف الذل والهوان فى كافة أمور دينهم على السواء(١) . ولم تكن كريت بين أيدى البنادقة سوى ضيعة من ضياع الاستغلال ، مثلها فى ذلك كمثل كافة ماوقع تحت حكم الرومان أيام سلطانهم من بقاع رزئت بذئاب المستعمرين وأذنابهم ، يعبثون فى أرضها باسم السلطان فساداً ، ويسخرون أبناءها لخدمة شهواتهم ، وحمل كنوزها وأرزاقها إلى البنادقة . ولم يكف البنادقة كل ذلك ، ولم يكفهم أن يبعثوا بالموت على الناس تحت حبال المشانق ، بل بعثوا به بين يدى الجوع فخربوا مدناً وقرى ومحوا أسراً كاملة ، وذلك عندما حرموا على أهل اسفاكية وأهل لاشيد زراعة القمح حتى بارت الأرض ، وبقيت قطعة من الصحراء مدى قرن من الزمان .

ويؤكد كتاب التاريخ ممن زاروا الجزيرة وسمعوا من أهلها أن فلاحى الجزيرة الذين شربوا من مر الحياة بين أيدى البنادقة ولقوا من أهوالها ماجعل الموت خيراً منها ، قد تذوقوا طعمها ونعموا بها بعد الفتح العثمانى سواء منهم من اعتنق الإسلام ومن بقى على دينه ويعزون ذلك إلى تسامح المسلمين ويخطئ بعضهم حين يؤكد مثل ذلك ويعزوه إلى ما تميزت به سياسة الحكم عند البنادقة من الدقة والمهارة اللتين خلت منهما سياسة العثمانيون بحيث استطاع الكريتيون بين أيديهم أن يصلوا بالخداع إلى ما لم يصلوا إليه عند البنادقة(٢) .

ومن الآثار التى ترتبت على مساوىء حكم البنادقة وسياستهم الخرقاء فى معاملة أهلها اضطرار عدد كبير من الأسر المسيحية إلى الهجرة إلى مصر فراراً بدينهم ودنياهم من ظلم البنادقة يأوون إلى ظل الإسلام فى مصر ، فينعمون فيه بالبر والرحمة والاستقرار والطمأنينة ، ويتجرون فيما كان يصل من صادرات الجزيرة

---

(١) Pashley, Vol. I, p. 117.

(٢) Perrot, *L'Ile de la Crète*, pp. 149-152.

إلى القاهرة والاسكندرية من الأنبذة(١) . ويثير أمرهم قنصل البندقية فى القاهرة فيتقدم بشكواه إلى أولى الأمر من البنادقة فى كريت(٢) .

وليس أدل على طغيان البنـادقة وقسوة سياستهم الاستعمارية من ذوبان العنصر اليونانى فى غمرات الأحـداث التى وقعت بين سقوط قبرص فى أيدى العثمانيين عام ١٥٧١ وبدأ محاصرتهم مدينة قندية عام ١٦٤٥ بحيث خفت صوتهم ورق لونهم حتى كاد ينمحى تماماً . وكان البنادقة قد سلـكوا أنـكر السبل واستخدموا أبشع الوسائل لإخضاع الوطنيين وإذلالهم خلال الثورات التى قاموا بها بين ١٢١١ — ١٣٦٣ .

وإذا كان البنادقة قد واجهوا شيئاً من ثورات الوطنيين بعد ذلك فلم تـكن هذه بذات خطر عليهم إذ لم يكن هدف من قاموا بها تحقيق غرض قومى من شأنه أن يرفع عنهم ظلماً ، أو يخفف عنهم بعض ما لا يطيقون من أعباء الضرائب أو يرد عليهم بعض حقوقهم فى حرية العيش والتمتع باستقامة أمور القضاء والإدارة ، وإنما كانت كلها بتحريض من أصحاب المصالح من أثرياء المواطنين الذين قصدوا من ورائها إلى تحقيق مصالحهم فى الاحتفاظ بما رأوا لأنفسهم من حقوق فى الضرائب التى فرضت على الزراع فى أقاليمهم(٣) .

---

(١) كان النبيذ من أهم محاصيل الجزيرة ، ولم يقتصر تصديره على مصر وحدها بل أسواق وروبا جميعاً يصل إليها عن طريق إيطاليا ، ويصدره الكريتيون إلى انجلترا ويستوردون لقاءه الأقمشة الصوفية بخاصة ، أنظر : Pashley, Vol. II, pp. 53-54.

(٢) *Ibid.*, Vol. I, pp. 318-319.

(٣) Finlay, Vol. V, p. 87.